البعد التقويمي للسخرية من عهد المرابطين حتى نهاية بني الأحمر

((دراسة تحليلية))

م.م. حمود ناصر حسون

أ.د. علي مطشر نعيمة

جامعة البصرة – كلية التربية للعلوم الإنسانية – قسم اللغة العربية

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث لبيان البعد التقويمي للسخرية، كونه أحد الأهداف الأساسية للسخرية، وعرض البحث في الجانب الموضوعي من النثر الساخر، لأهم المضامين التي شملها هذا النثر من عهد المرابطين حتى نهاية بني الأحمر، ولما يقوم به البعد التقويمي من دور إصلاحي لتحقيق أهداف اجتماعية وأخلاقية عبر إصلاح العيوب والتناقضات التي تطرأ على المجتمع.

الكلمات المفتاحية : النثر الأندلسي ، البعد التقويمي، المرابطين ، الموحدون، بني الأحمر .

The Evaluative Dimension of Irony in the Era of Almoravids' Almohads and Bani Al-Ahmar

Asst. Lect. Hamood Nasser Hasoon
Prof. Dr. Ali Metasher Nua'ima
Dept. of Arabic,College of Education for Human Sciences, University of Basrah

Abstract:

This research aims to show the evaluative dimension of irony, as one of the main goals of irony. The present research displays the objective aspect of satirical prose, for the most important contents included in this prose from the era of Almoravids until the end of Bani al-Ahmar. The evaluative dimension of irony plays a reformist role to achieve social and moral goals through fixing the faults and contradictions that occur in society.

Key words: Andalusian prose, the evaluative dimension, Almoravids, Almohads, Bani al-Ahmar.

مقدمة:

يتناول هذا البحث البعد التقويمي للسخرية من عهد المرابطين حتى نهاية بني الأحمر؛ لأهمية هذه المراحل الأدبية في النثر الأندلسي، لاعتبار أهمية الدور الذي يؤديه النثر الساخر؛ لأنه يعد شكلا من أشكال النقد الواعي نحو التقويم والإصلاح، لرصد عيوب المجتمع وتناقضاته، وتسلط الضوء عليه بالرغم من الأخطار فهي تقدم رغبة في الإصلاح والبناء في سبيل التخفيف من معاناة الشعوب. وتتطرق إلى مُخْتَلَف القَضَايَا في المجتمع ومشاكلِ الإنسانِ السِّياسيَّة والفَكْريَّة والاجتماعية والشخصية وغيرها، وجاء البحث في مقدمة، فتمهيد، ثم البحث في البعد التقويمي للسخرية الذي يعد أهداف السخرية.

مدخل:

تؤدي السخرية أهدافاً متعددة على مستوى المجتمع والفرد، ومعظم الأهداف هي نفسية اجتماعية[١]، ومن هنا يكون للسخرية دور مهم يجعلها ذات تأثير لا ينكر في الشخصية الإنسانية.

إنّ فساد الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والأخلاقي والثقافي مدعاة إلى الغضب، ومحاولة معرفة مواضع النقص والخلل، ثم محاولة الإصلاح والتقويم، والسخرية أسلوب من أساليب نقد الواقع وإصلاحه ((**إذا كانت عصور الانتقال أو التحول التاريخية التي تتحقق بالصراع الدموي والبطش العسكري وما يصحبها من توتر وقلق أو حصر نفسي. تشكل وسطاً ذهبياً ومناخاً نفسياً مواتياً لشيوع الفكاهة وازدهار روح السخرية: فلهذا لا غرو أن يقال: ليس أحفل بالأضاحيك عن عصور التقلب وعصور الشدائد والأهوال وما تقترن به من تحولات خطيرة وهائلة في النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلاقات الإنسانية والمواقف وردود الفعل النفسية، حيث تختلط القيم وتضطرب المعايير وتتزعزع المعتقدات، المفروض منها على السواء. ومن ثم لا يلبث أبناء الشعب على قيم ثابتة ولا يأمنون على حال أو معايير متواترة، وفي ضوء هذه المتغيرات وما تفرزه من تناقضات، وما تطرحه من معطيات جديدة، خاصة في عصور القهر العسكري والقمع السياسي والجور الاجتماعي، تبدو الحاجة ملحة إلى سلاح الفكاهة، أو بالأحرى السخرية في محاولة جمعية للتغلب على تلك المتناقضات من ناحية، ومقاومة الانحراف والتسلط من ناحية أخرى، مع الحرص –في الوقت نفسه– على عدم الذوبان في الظروف المستحدثة القاهرة**))[٢].

إن السخرية حينما ترصد عيوب المجتمع وتناقضاته، وتسلط الضوء عليه بالرغم من الأخطار فهي تقدم رغبة في الإصلاح والبناء في سبيل التخفيف من معاناة الشعوب. وبذلك استطاعت السُّخرية أن تلامس مُخْتَلَف القَضَايَا في المجتمع ومشاكلِ الإنسانِ السِّياسيَّة والفَكْريَّة والاجتماعية والشخصية وغيرها، ولا تزال السخرية سلاحاً فعالاً اتخذه الأدباء لإشهاره بوجه الخصوم ورد الآراء المختلفة، وتعد صوتاً ذكياً معبراً عن مواقف أصحابه.

ويلخص علماء النفس أهداف السخرية في خمسة أهداف أساسية: ((**التخفيف من وطأة القيود، والنقد الاجتماعي، وترسيخ عضوية الفرد في الجماعة، وأسلوب المواجهة الخوف والقلق، واللعب العقلي**))[٣].

البعد التقويمي للسخرية:

يرى بعض الناس أن السخرية استهزاء وإذلال للآخر، ولا يراها إلاّ معولاً للهدم، ولكن هذه النظرة من جانب واحد، فالساخر إن أراد هدم جانب يراه معيباً، فإن من جهة أخرى يسعى إلى بناء جانب آخر يرى فيه صلاحاً. ((**فالهجاء وإن بدا في مظهر الهدم، فإنه فيه قوة بنائية إلى جانب هذا المظهر الهدام**))[٤]، ومن أهداف السخرية التقييم، ومن الملاحظ أن هذا الهدف يتداخل مع التقويم، وخاصة في الدور النقدي والاجتماعي؛ وذلك لأن السخرية تنتج عبر التفاعل المجتمعي، وليس عن طريق فرد لم يختلط بالمجتمع؛ لأن السخرية تعتمد على الموضوعات الآنية التي تطرأ على المجتمع، ومعالجتها لهذه الموضوعات تؤدي إلى التفاعل السريع معها، إن النصوص التي وقفنا عندها كان هدف السخرية فيها تقييم السلبيات، وهو هدف مشترك مع أغلب نصوصِ السُّخرية الَّتِي وردت في الفصلِ الأول، لكن السخرية لم تقف عند حدود التقييم بل تجاوزته إلى هدف التقويم في بعض النصوص النثرية الأندلسية.

كشفت السخرية عن قضايا اجتماعية عديدة، ناتجة من صميم المجتمع الأندلسي، ورصدت صوراً واقعية من حياة الناس بشكل ساخر فكه، من أجل تقييم هذه القضايا ونبذها.

وتعد مقامة العين لابن المرابع الأزدي (ت ٧٥٠هـ) من المقامات التي عبرت عن طبيعة بعض العلاقات بين الأزواج بطريقة ظاهرها الفكاهة لكنها تجسد في مضمونها السلوك الخاطئ لبعض الزوجات إذ يذكر البطل أن هناك زوجاً لامرأة سليطة اللسان، فذات يوم رفضت أن تقدم له الطعام قبل أن يعدها بشراء أضحية العيد لها، مثل ما فعل زوج الجارة ((**فقالت لي ربة البيت، لِمَ جئْتَ ولِم أتَيْت؟ قُلْت جِئْت لكَذَا وكَذا؟ قَالْتْ لَاْ غَدَا لَكَ عِنْدِي اليَوْم، ولَوْ أَوْدَى بِكَ الصَوْم، حَتَّى تسَل الاسْتِخَارة، وتِفْعلُ كَمَا فَعَلَ زَوْج الجَارة**))[٥].

وصورت المقامة بأسلوب هزلي ساخر حال هذا الزوج من لحظة شرائه الأضحية إلى أن فرت منه في الأسواق، وقد أعملت الزوجة لسانها السليط بسخرية هزلية أمام الناس بألفاظ بذيئة ((**أخرج عني يَا مقيت، لا عَمِرتُ معك ولا بقيت، أَوَ عَدِمت الدِّين، أخذ الورَق بالعين، يلزمني صوم، ... وقالَتْ كَيْت وكَيْت، لَاْ خَلَّ ولَاْ زَيْت ولَاْ حَيَّ ولَاْ مَيْت، ولَا مَوْسم ولَا عِيْد، ولَا قَرِيْب ولَا بَعِيْد، سُقت العِفْريت إلى المنزل، ورَجَعت بَمعْزل، ومَن قال لك اشْتَرِه ما لم تَرَه، ومن قال لك سُقْه حتّى توثِّقه**))[٦].

منتهية إلى طرده لقلة معرفته ليكون أضحوكة أمام أهل الحي المجتمعين ((**أُخْرُج عني يَا لَكِع، فعَل الله بك وصنَع، وما حَسَبك عن الكِباش السِّمان، والضَّأْن الرَّفيعة الأَثمان، يَا قليل التَّحصيل، يَا من لا يعرف الخِياطة ولا التَّفْصيل**))[٧].

جاءت السخرية في هذا النص لتقييم شكل من أشكال العلاقات الزوجية القائمة على ثقل طلبات الزوجة وسلاطة لسانها يقابل ذلك غفلة الزوج وسوء تدبيره، فظاهر هذه المقامة هو الإضحاك وباطنها تقييم للعلاقات الزوجية.

ويزخر النثر الأندلسي بنصوص السخرية التقييمية التي تتعلق بالقضايا الاجتماعية، ويتضح ذلك بشكل بارز، في مقامة الرب يقدم السرقسطي نقداً ساخراً لما يتهافت عليه الناس من توافه الأمر، وهذا التهافت فيه شيء من فساد الأخلاق وقلة إدراك الأمور. قائلاً: ((**بين صبية ونساء، يعدو ويرقص، ويزيد في حديثه**

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

وينقص وإذا في يده سلاسل، وحيوان كريه المنظر باسل، يرقص برقصه، ويتوقع مواقع زيده ونقصه، وقد شحافاه بعود، وأخذ في هبوط من اللهو وصعود))(٨).

فقد بلغ تقييم السرقسطي وهجاؤه للواقع الاجتماعي مداه، بتصوير التناقض الواضح بين حياة الترف والبذخ التي يعيشها الحكام والأمراء، وبين حياة الشظف التي يعيشها باقي الناس، وهذا ما جعلهم يلجؤون إلى الاحتيال على الرزق باتخاذ مهنة مراقصة الدب مصدر رزق مما دعاه إلى نزوله إلى مستوى الصغار في التفكير ((**أبا حبيب أبا الدب ترتزق، ومع الولدان تتمزق، لقد سفك نجمك، ورذل حجمك، وخف وقارك ... ولؤم سعيك، وحرم رعيك، ووجب نعيك**))(٩).

وفي مقامة الطب والعرافة للسرقسطي نقف على السخرية ممن يدعي شيئاً ليس فيه، فالبطل قد انتحل مهنة الطب والعرافة في آن واحد، وهو يحاول معالجة فتى أصابه المرض ((**... والشقي مائل، والزبد من فمه سائل، والذراع فتلاء، والمقله قبلاء، والريق قد عصب فاه، والكرب قد وفّاه وما وفّاه**))(١٠).

وعندما يخفق في معالجة الفتي، يلجأ إلى السحر والشعوذة محاولة منه لتخفيف آلام الفتى المريض، فقال مخاطباً الجن ((**يَا مارد سهمك صائد، ويا مريد ماذا تريد، ما أطفاك ما أعصاك، ما أبعدك عن الخير وأقصاك، أخرج يَا واغل، فإنك شاغل، أبعد يَا خاتل، فإنك قاتل**))(١١).

بعدها يخاطب الناس ويعلق مهارته وبراعته، ثم يظهر بين الناس فتى آخر مريض قد مسّه الهيجان والجنون، ينظر إليه الطبيب المحتال، ويكشف لنا عما به، وما سيحدث له وقد تبدل حاله بعد أن أحب ابنة عمه ((**سيكون لك أمر وسلطان، يصحبك فيه ملك وشيطان، أحدهما يحمل العلم والحلم، والثاني يأمر بالغشم والظلم، ثم تعقبك أهوال وأهوال، وتذهب على يدك أموال وأموال، ثم يتراجع أمرك كما يتراجع الهلال وتتناوب الأخيار والظلال، وإمارة ذلك أنك الآن ذو هنيدة وبدرة، وأخذ سورة بها وبدرة، وعندك من القيان ندرة، لها عين صدرة مجدرة ... وغنك بشعر لم تسمعه من قبل**))(١٢). وفي نهاية المقامة يلوم الراوي الطبيب المحتال على فعله فردّ عليه أن الدهر هو الذي دفعه إلى الحيل والألاعيب، فقد خدع الناس واندفعوا إليه ((**فتطاول الناس إلى دعواه، وتوقعوا عَدْواه، وجعلوا يسألونه عن السرائر... فتسابق الناس إليه بالدينار والدرهم، ثم سألوه عن كل مُشْكلٍ ومبهم، فأرسل قوله حدساً ورَجْماً وأوسع عودهم عضّاً وعَجْماً**))(١٣).

تقدم هذه المقامة نقداً صريحاً لشخصية الطبيب المحتال وتصرفاته، فهي شخصية لئيمة الطباع، وتستخف بالعقول، فهو أمامهم ماهر بمهنته، وهو في الحقيقة محال مخادع يحتال على أموالهم، وقد عبر السرقسطي عن سخطه من تصرفات بعض الأطباء المحتالين.

إن الغرض الحقيقي من السخرية من الأطباء المحتالين لا يقف عند حدود ما هو ظاهر من هجاء وتهكم بل يتعدى ذلك إلى النقد البناء القائم على تجسيد الصورة السلبية لهم، ليكون ذلك خطوة أولى باتجاه تنقيته. وأن هذه القضايا الاجتماعية والأخلاقية التي تناولها السرقسطي تؤكد أنه لم يكن يعيش بأدبه وفكره

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية – العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

بعيداً عن المجتمع وقضاياه، بل كان له رأي في أحداث الحياة من حوله، ويناقش المشكلات التي تطرأ في مجتمعه، ويقدم له رأياً.

وفي السياق نفسه، نجد مقامة ((الحريزي اليهودي)) أنموذجاً مشابهاً لمقامة السرقسطي فالبطل في مقامته طبيب متسول يستعمل الدجل والسحر الحيل الماكرة، ليترك انطباعاً مؤثراً في جمهور المستمعين، وقد انجذب الناس لحديثه ووقعوا في شباك صيده، ويتضح أن توجه ((الحُريزي اليهودي)) بنقده إلى الأطباء المحتالين الذين جل همهم جمع المال، فالطب لديهم تجارة، وليس رسالة، ويذكر لنا ((الحريزي اليهودي)) حقيقة الطبيب في مقامته، فيركز على سخريته اللاذعة مما يقوله الطبيب، والاستخفاف بجمهور المستمعين، ويتهكم بالبدع والخرافات التي يستعمل الطبيب، وتتجلى جرأة ((الحريزي اليهودي))، في نقده اللاذع للأطباء في عصره للتشهير بهم وتعريتهم أمام أنفسهم، وأمام الناس، وكشف ألاعيبهم وعيوبهم، محاولاً استئصالها ومحذراً من نتائج وعواقب ذلك(١٤).

وتقوم السخرية بالمحافظة على الآداب ومحاسبة كل خروج عن ذلك، وتعد رقيباً اجتماعياً، وهذا ما نجده في رسالة ابن الخطيب التي أرسلها إلى أبي عبد الله المالقي تناول فيها بعض المعلمين بشيء من النقد ساخراً منهم بسبب طلبهم للمصالح الدنيوية قائلاً: ((**فكأنما طمس على الأفواه، ولاءَم بين الشفاه. وإن أمر بالإفصاح، وتلاوة الألواح، علا الضَّجيج والعجيج، وحُقَّ به كما حَفَّ بالبيت الحجيج، وكم بين ذلك من رشوة تُدَسُّ، وغَمْرة لا تُحسُّ، ووعدٍ يستنجز وحاجة تُسْتعجل وتُجهَّز**))(١٥). فالطمع من العيوب الاجتماعية التي يصعب علاجها، وهو مغروس في الطبع والسلوك، لذلك يحاول الساخر أن يسخر من هذه الفئة الطامعة التي تريد امتلاك كل شيء لنفسها متجردة عن الفضيلة خاصة أن هذه الفئة من المعلمين.

وعندما يسخر المرء من هذه العيوب الأخلاقية، والتي يتسم بها قطاع من البشر، يكون بداخله الرغبة في التهذيب والإصلاح عن طريق السخرية، وأن يبدئ الكرة والاشمئزاز والكره لهذه العيوب، وليبرأ من هذا العيب كله أو بعضه إن كان **فيه** ((**فهو إذا نوع من الزجر والردع شبيه بالعقوبة، لكنه أخف منها وقعاً، وإن اتفق معها في الغاية، وهي خدمة الفرد والمجتمع**))(١٦).

ويقدم السرقسطي تقييماً سافراً من بعض رجال الدين، الذين يأكلون السحت باسم الدين، ويتخذون من عباءته ستاراً يحجب أطماعهم الدنيوية، قائلاً: ((**تَلبسونَ الثِّيابَ، وتَشدُّون العِيَاب، وتدَّخرونَ فُضولَ الأَقْوات، وتتمتَّعون بِنَغْمِ اللُّحون والأَصْواتِ، ولا تَذْرُونَ بِغَريب يُقَاسي نَغْمةَ القِرْقِس والذُّباب، ويتَّقي حُمَةَ العَقْرب والحُباب، ويأَوْى إلى بيتٍ أضْيقَ من سَمِّ الخياطِ، وقولٍ أوْجَعَ من أليم السِّياطِ، لم يقْدح فيه بزناد، ولا خلا من تمويلٍ أو عِنَاد**))(١٧).

وفي مقامة أخرى يصور السرقسطي أحد القضاة يتظاهر أمام الناس في مجلسه بالورع، في حين أنه يحاسب كاتبه على خراج يومه ((**... فتملأَّ الشيخُ غيظاً وحنقاً، وعاد صفوه رنقا، وقال: إلى كم هذا الاجتزاء، وإلى كم هذا الاعتداء والافخراء، تواطأتم عليّ في التدليس ..... قال: فتعرض له الكاتب بوجهٍ وقاحٍ، .... فإنك الذي لا يكفيه قليل ولا كثير، ولا يسلم من ظلمه خسيس ولا أثير**))(١٨).

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

ويستمر السرقسطي من هذا القاضي مشيراً إلى تناقض بين ظاهره وباطنه، قائلاً: ((.... **ويوم الأربعاء فقد أخلصته للدعاء، وربما ختمت آخره بالسماع، والمباشرة والجماع...**)) [١٩].

إن السخرية تكون أحياناً ضرورة اجتماعية؛ لحماية القيم وتوجيه الفرد إلى السلوك الحياتي الصحيح، وهذا ما تطرق السرقسطي إليه في إحدى مقاماته إلى مجالس السكر واللهو، لأنها خارجة عن الدين والقانون، وتُعدُّ من الأخطار التي تهدد أمن المجتمع، جاء فيها ((**وسرت معه إلى داره مثل الخان، ذات قُتار ودُخان، ورحابٍ وصحُون، ونَغَمٍ ولُحون، ثم صار بي إلى مجلس كالبِجاد، وجُوارٍ كحمائلِ النِّجاد، يتوقدون توقد النجوم، ويترامَوْن من الكؤوس بالرُّجُوم، فوقعوا عليَّ وقوع الفَراش، على ليِّن النَّضَدِ ووثير الفِراش، وبَقِيتُ في مداعبتهم ومغامزتهم في مثل الهِراش أو الحِراش، أتمتع بالأرداف والأعطاف، وأرشف الأفواه عذبة النِّطاق...**))[٢٠]، وهذا السلوك المنحرف وصفه بطل المقامة وصفاً لما يكون عليه حال الناس في مجالس السكر واللهو، وهذا السلوك يُعدُّ هبوطاً بالشخصية الإنسانية ووقارها، مما يجعلها مدعاة للسخرية.

ومن نصوص السخرية والتقييمية ما نتحسسه في رسالة كتبها أبو عبد الله محمد بن مسعود (ت ٤٩٥هـ) مبيناً فيها أن ولداً له قد توجه إلى الغرب، فوصل إليه من حال ولده أنه قد استغرق في الشرب والبطالة فبعث إليه برسالة متهكماً **ساخراً** ((**فأخبرني تاجر البحرين، وسمسار العراقيين، ودليل الحجازين، وخِرِّيث الفلاَتيْن، وابن عظيم القريتين ... وصف لي موقع الشمس في العين الحمية، وكيف كان مخلصك من تلك البلاد الوثبة، وكيف رأيت مدينة يونس، وجنة إكرم، والبركان المؤنس وجزيرة الغنم، والزاوية وصخرة العقاب وبئر الهاوية وكنيسة الخراب ... ومرسي الزرقاء، وإيوان كسرى وكفر توش، والهرمين والمنار، وجبل اللكام والغاز... واحك لنا من لغاتهم حسنها، ومن هيئاتهم أتقنها... فنجاتبك قد ظهرت، والدُّرة قد ندرت، ومخايل السعود طالعه، وآيات الفلاح ساطعة... لا تَعُدَّن هذا تحديداً عليك ولا كرامة للشيطان الرجيم**))[٢١].

لقد اعتمد أَبُو عَبْد الله بن مسعود فِي هذا النَّص أسْلوبَ الهزل السَّاخر، وهو لا يقصد إلى الهجاء الصريح والذم، وإنما لجأ إلى الأسلوب الساخر والتهكم لبيان موقفه مما وصل إليه حال ابنه، محاولاً تنبيه لما هو عليه ودعوة للإصلاح ومن العيوب الاجتماعية التي صورها السرقسطي التغزل بالمذكر، وهو من الأمور التي تأنفها الطباع وتمجها النفوس قائلاً ((**قذَفَتْني الغُربةُ إلى بعض بلاد خراسان، فَتعلَّقتُ بها فَتى من بني سَاسَان، فما زالَ الدَّهْر تصْرِمُ مِنِّي حباله، وتصْرِفُ عنِّي بَالَهُ، ويَزْدري بِهَواي، ويُولَعُ بسواي، وتسُومُني الصَّيْمَ، ويُلبسُني الذَيْمَ، والصَبْرُ عنِّي نافِرٌ، ووَجْهُ الوَجْدِ إليَّ سافِرٌ، والصَبَابةُ نَعْتادُ، والنفسُ لا تبقي سلوةً ولا ترتَادُ، ولا وسيلة ولا شافع، ولا ناجح عن الرأي ولا نافِعَ، حتّى دعتني دواعي التبريح إلى الإعْلانِ والتصريح**))[٢٢].

لقد تغزل بطل المقامة بهذا الفتي وكأنه يتغزل في امرأة، فكما يجد في المرأة صدوداً وتمنعاً ثم إقبالاً وتمتعاً، **قائلاً** ((**قال: فما كان إلاّ أنْ نظر الرُقعةَ، ولمحَ وجادَ بالوصْلِ وسَمح، فألانَتْ قاسِية وعَطفت عَاسَيه،**

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية – العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

وردَّت جِماحَه، وأرسلَت سَمَاحَة، فيا لها ما ألطف وأوقع، وأشقى وأنفع، بل أيُّ شيءٍ أجدَى وأنفَع، وأسنَى وأرفعَ، من شيءٍ يردُّ على النفوسِ حياتَها، ويُلْبسُ الشمسَ إيانها...)) (٢٣).

والسرقسطي يسخر من هذه الظاهرة بصورة غير مباشرة، ويكشف الستار عن عيب أخلاقي وعادة سيئة، ومن ثم ركز سخريته في نقطة ضعف بطله وحاجته الملحة إلى هذه العادة السيئة، وقد أحدث السرقسطي مفاجأة للمتلقي بقبول الفتى لذلك، ناتجة عن التناقض الشديد بين الفتى والمرأة، فليس بينهما أي وجه من وجوه التلاقي وفي هذا سخرية قوية وعنيفة لهذه الظاهرة، فالفتى لديه يحل محل المرأة بل يفضله.

لم يقف منشئو المقامات موقف المتفرج مما حاق بالأندلس من انقسامات داخلية وعدو متربص لهم، ولقد كان السرقسطي سباقاً في التعبير عن تلك الأحاسيس. فهو يحذر أولي الأمر من مغبة الاختلاف فهو يذكرهم بمصير الأمم السابقة، قائلاً: **((أيها الناس ما استدعت النعم بمثل السكره ولا توقف النعم بأوفى الذكر، وإن الذي أربينكم من الدخول، أشدهما ألم من المحول، وما تأكد من الإحن، أعدى من المحن، فظهورا الجيوب، وأخلصوا العيوب، وارفعوا الظن والريب، وإنهما ستشعروا الحرب والريب، واعلموا أن تشتت الأهواء، يرفع عنكم بركة الأنواء، وفيتم التدابر والبغضاء، وهلا الصفح والإغضاء، تأمموا الأمم السوالف وتوقعوا المهالك والمتآلف، وإذا استولى الشقاق والخلف، فسيّان الواحد والألف، وقديماً ظهرت الأخلاف على مساوئها، وقهرت الآلاف عزة مناوئها، فصلوا أسبابكم وعظماً أربابكم**(٢٤).

وإن كانت هذه المقامة في ظاهرها الإرشاد والوعظ، إلاّ أنها وظفت الرمز للتحذير والنذير من مغبة الاختلاف، ومن ثم فإن المتأمل في النص يجد فيه نوعاً من الهجاء السياسي، يهجو به أولي الأمر الذين مكنوا الأعداء من ديار الأندلس، ويُنعى به حال العرب والمسلمين في الأندلس، قائلاً: **((وما الذي حملكم على ركوب هذا البحر العَجّاج، وخرق هذا الماءِ الثَّجاج... هل سُدَّتْ عليكم المَسَالكُ، أو طُوِيتْ دونكم الممالكُ، أما لكم في قصدِ المُلوكِ مهتجرٌ رَابحٍ، ومَفَابِقُ مِنَ العَيْشِ ومَصَابِحٌ، تَتَقيَّلونَ ظِلالَ الوجاهةِ والتكريم، وتتقاضَوْنَ أنصَفَ مُداينٍ وغَريم، حتّى تُطالوا الأَسْفارَ، وتُعَامِلوا الكُفَّارَ، وتُملُّكوهم الرِّقّاب، وتَخْلعوا دونهم النِّقَابَ، فَيُجْروا عليها الأحكام، ويَغْنُموا العِيابَ والأَعْكَامَ، ثُم تُعاينُوا عِبَادَةَ النِيرانِ، ومُراقبةَ القِرانَ، والتقربَ بالأبدانِ، والتزلفَ بالمِدَانِ، من أُمَّةٍ تَسْتَيرُ عنكم بالرَّطَانَةِ، ونَدَّعي دونكم في اللبَابَةِ والفَطانةِ، ويزدرُونَكم ازدراء النِّمالِ، ويسمونكم تسعة الإغفال والإهمال"**(٢٥).

فقد عبر السرقسطي عن هذه العيوب التي جسدها بشكل مثير للسخرية والألم من الواقع الأندلسي، ويبرزها في صورة تسترعي الانتباه، لإصلاح هذه العيوب، فتدفع أهل الأندلس لمحاربتها والتخلص مما هم فيه من ضعف وهوان.

إن السخرية تحارب القيم المنبوذة والدخيلة على المجتمع لذلك تعد سلاحاً يساعد على ترسيخ القيم المرغوب فيها في المجتمع، وقد أشار أغلب الفلاسفة إلى الأثر التصحيحي الذي تتركه السخرية(٢٦).

ولهذا تعد السخرية من أشكال التقويم الواعي الممزوج بالإحساس الفطري، فهي الضحكة الباكية، والجد المغلف بالهزل.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

و((يظهر لنا دور الفنان الناقد بتسليطه الضوء على كل ما هو بعيد عما يعتقده المجتمع أو طائفة منه، بأسلوب ملؤه التهكم والسخرية يميز في ضوءه الصحيح من الخطأ، والحسن من القبيح"(٢٧).

وما دامت السخرية نتاج المجتمع على اختلاف شرائحه وتناقضاته فإنها بلا شك ستقوم بتسديد سهامها نحو ما تراه سلبياً في المجتمع من أجل إصلاحه، فهي تقوم بالتطهير الجماعي لكل شيء سلبي يتراكم بفعل الأحداث الاجتماعية والسياسية السيئة.

ولهذا يعد الأدب الساخر من أهم أشكال المقاومة الثقافية في مجتمع يعاني من الضغط والاحتقان بأشكاله كافة، وهو يعبر عن حالة رفض للواقع، من دون أن يخل صداماً أو مواجهة معه **((إلقاء الضوء على الوضع الرديء القائم وشحن المتلقي بشحنة بدافع التغيير إلى الأفضل وقد يكون متدرجاً، فتبدأ بالحفظ والترديد على سبيل التندر ثم تمر بمرحلة التأمل والتفكر، وصولاً إلى الصحوة والعمل على تغير الواقع"**(٢٨).

ومن نصوص السخرية التقويمية رسالة كتبها قاضي سرقسطة ثابت بن عبد الله لوالي الأندلس أبي طاهر تميم بن يوسف بن تاشفين يؤنبه فيها حين انهزم عند نشوب القتال أمام جيش الفونسو الأول سنة (٥١٣هـ) حتّى أوشك الأعداء على الاستيلاء على مدينة سرقسطة، واتهمه بالجبن وضعف الإيمان وحذره من عار الانهزام والفرار، قائلاً: **((فما هذا الجبن والفزع؟ وما هذا الهلع والجزع؟ بل ما هذا العار الضليع؟.... وقد ضمن الله تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره، ولمن حامى عن دينه أن يؤيد ويظهره، فما هذا أيّها الأمير الأجل؟ ألا ترغب في رضوانه؟ واشتراء جنانه بمقارعته حزب شيطانه، والدفاع عن أهل إيمانه.... ولا ترضى بخطة العار، وسوء الذكر في الصيت في جميع الأمصار"**(٢٩)، فكان لهزيمة الجيش المرابطي الأثر الحاسم في صناع سرقسطة، ويؤكد ذلك ما أراه قاضيها في الرسالة من الحلوم الشديد على أبي طاهر تميم لانهزامه من المعركة مما أثر في الروح المعنوية بقوله: **((وما كان إلاّ ن وصلت .... على مقربة من هذه الحضرة.... حتّى انثنيت وما انتهيت... خائباً عن اللقاء، ناكصاً على عقيبك عن الأعداء، فما أوليتنا غناء، بل أوليتنا بلاء، وعلى الداء داء بلا أدواء... أذللت الإسلام والمسلمين، واجترحت فضيحة الدنيا والدين))**(٣٠).

وفي نص آخر نجد السخرية التقويمية قائمة على التوبيخ والتقريع تطال المتخاذلين، وهذا ما كتبه أبو محمد بن عبد الغفور عن أمير المسلمين إلى القائد أبي محمد بن أبي بكر يزجره ويعنفه لشنيع صنعه، مما أدى إلى انهزام الجيش والفرار على مواجهة الأعداء، ويتهمه بالجبن وكان عليه التجلد بالثبات أمام الأعداء، قائلاً: **((وما بعثناك لتشهد وإنما بعثناك لتجهد في طعن بخطى، أو ضرب لمنبهر، فإذا لم تفعل، فلا أقل تجلد وتصبر، وتحمل من معك على الصبر، ولا تكن أول من فر، فتُعدي بفرارك تَثبت جارك، ولو كتمتها من شهادة لما أثم قلبك، فلا تؤثر الكتب بما يثير عليك العتب))**(٣١).

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

وظف الكاتب في هذا النص النقد اللاذع والتهكم متخذاً منه طريقاً للإرشاد والإصلاح، ويلاحظ أن الأمير قد تجنب السخرية من قائده بأيّ لفظ فيه تجريح، وإنما اعتمد أسلوب السخرية القائمة على التوبيخ والتقريع، وهذا هو جوهر التقويم في هذا النص الساخر.

وكتب ابن عميرة المخزومي رسالة تقويمية عبر وقفته التأملية مع النفس البشرية مبيناً أن الانحراف عن طريق الحق ومتابعة الضلال والهوى، والميل إلى مطامع الذات، والاستهتار بالمصالح العامة، من أجل الحصول على متاع زائل، ينتج أمراض نفسية اجتماعية واختلاف الآراء والشتات والتفرقة، قائلاً: **((ربنا أمرت معطينا... ونهيت فما انتهينا، وما كان ذلك جزاء إحسانك إلينا، أنت العليم بما أعلنا وما أخفينا، والمحيط بما لم نأت وما آتينا، لو أننا فيك أجبنا وقلينا، لم تُرِنا من الفرقة ما رأينا، ولم تسلط عدوك وعدونا علينا، لكن أنت أرحم من تؤاخذنا بما جنينا، وأكرم من أن لا تهب حقوقك لدينا))**[٣٢].

ولم تكن ظاهرة التهكم بالذات واللامبالاة، ورفض الواقع قاصرة على ابن عميرة المخزومي، وإنما برزت نتيجة منطقية للتحولات السياسية الخطيرة والتموجات الاجتماعية والشعور بعدم الاستقرار. ومن الطبيعي أن ينعكس كل ذلك على نفوس الناس، ويتحول إلى ظواهر مفرطة منها التهكم بالذات[٣٣].

يتضح لنا أن بعض القضايا الاجتماعية كانت مورداً ينهل منه الساخرون، ولكن لم يكن الغرض هو التفكه والإضحاك بل هو انتقاد ورصد لهذه السلبيات مما يجعل نثر الكتاب نوعاً من أنواع الإصلاح والإرشاد.

الخاتمة:

كشف البحث عن تنوع الموضوعات التي دار حولها النثر الساخر في فلكها والتي جميعها تدل على معايشته للحياة، وتسعى السخرية إلى تحقيق أهداف اجتماعية وأخلاقية وتتصدى لأي نقيصة اجتماعية أو جور سياسي بغرض الإصلاح والتقويم؛ مما يجعل من الضروري النظر إليها نظرة موضوعية ولا نعدها ضربًا من التسلية والتهريج الذي يصل إلى حد التفاهة التي تخلو من التجارب القيمة أو الأساليب الفنية.

الهوامش:

(١) ينظر: الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي: ٥٤.

(٢) الشعر الشعبي الساخر في عصور الممالك: ١٣.

(٣) الفكاهة والضحك: ٢٤٤.

(٤) شعر الأسر والسجن في الأندلس: ١٧٦.

(٥) الإِحاطَة في أَخْبار غرنَاطَة: ٤٢٦/٣.

(٦) المصدر نفسه: ٤٢٧/٣ وما بعدها.

(٧) المصدر نفسه: ٤٣٢/٣.

(٨) المَقامات اللُّزومية: ٤٥٤.

(٩) المَصْدر نَفسْه: ٤٥٨.

(١٠) المصدر نفسه: ٥٣٧.

مجلة آداب البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٣ – المجلد ٤٦ – تموز لسنة ٢٠٢١

(١١) المقامات اللزومية: ٥٣٨.

(١٢) المصدر نفسه: ٥٤٠.

(١٣) المصدر نفسه: ٥٤٣.

(١٤) ينظر: صورة الطبيب في مقامات تحكموني ليهود الحريزي، م ٣٢، ع٢، ٢٠١٧: ٧١ وما بعدها.

(١٥) ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب: ٢٤٤/٢.

(١٦) الفكاهة في الأدب العربي أصولها وأنواعها: ٧٢.

(١٧) المقامات اللزومية، ٢٩٤.

(١٨) المقامات اللزومية: ٣٢٣-٣٢٤.

(١٩) المصدر نفسه: ٣٢٨.

(٢٠) المصدر نفسه: ٥١٨-٥١٩.

(٢١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ٦٧/٢/١-٦٨.

(٢٢) المقامات اللزومية: ١٤٠.

(٢٣) المصدر نفسه: ١٤٣.

(٢٤) المقامات اللزومية: ٥١-٥٢.

(٢٥) المصدر نفسه: ٧٩-٨٠.

(٢٦) ينظر: السخرية السياسية العربية: ٢٨.

(٢٧) الفكاهة في النثر العباسي: ٣٤.

(٢٨) تراجم وآثار أدباء الفكر الساخر: ٢٦٥.

(٢٩) دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس: ٥٤٠/١.

(٣٠) المصدر نفسه: ٥٤١/١.

(٣١) خريدة العصر وجريدة العصر، ٤٣٢/٣.

(٣٢) نفح الطيب ٣٠٧/١.

(٣٣) ينظر: الفكاهة في الأدب الأندلسي: ٣٣٠.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر والمراجع:

١- الفكاهة وآليات النقد الاجتماعي، مجموعة مؤلفين، مركز البحوث الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ط١، ٢٠٠٤.

٢- الشعر الشعبي الساخر في عصور الممالك، د. محمد رجب النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع القاهرة، ٢٠١٥.

٣- الفكاهة والضحك رؤية جديدة،، د. شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠٠٣.

٤- شعر الأسر والسجن في الأندلس، بسيم عبدالعظيم إبراهيم، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط٢، ١٩٩٦.
٥- الإحاطَة في أَخْبار غرنَاطَة، لسان الدين بن الخطيب، تح: د. محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٩٧٧.
٦- المَقامات اللُّزومية، للسرقسطي، تح: د. بدر أحمد ضيف، تقديم د. محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية،١٩٨٢.
٧- ريحانة الكتّاب ونجعة المنتاب، د. محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٩٨٠.
٨- الفكاهة في الأدب العربي أصولها وأنواعها، د. محمد أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٦.
٩- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام، تح: د. أحسان عباس، دار الثقافة، لبنان،١٩٩٧.
١٠- السخرية السياسية العربية، خالد القشطيني، دار الساقي للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٩٢.
١١- الفكاهة في النثر العباسي للقرنين الثالث والرابع الهجريين، علي عزيز صالح، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١٠.
١٢- تراجم وآثار أدباء الفكر الساخر: سيد صديق عبد الفتاح، الدار المصرية اللبنانية، مصر، ط١، ١٩٩٣.
١٣- دولة الإسلام في الأندلس، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط٢، ١٩٩٠.
١٤- خريدة العصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، تحقيق آذرتاش آذرنوش، الدار التونسية للنشر، ط٢، ١٩٨٦.
١٥- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري، تح: د. أحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، ١٩٦٨.
١٦- الفكاهة في الأدب الأندلسي، د. رياض قزيحة، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٨.

ثانيا: الدوريات:

١- صورة الطبيب في مقامات تحكموني ليهود الحريزي، إبراهيم سالم، مجلة رسالة المشرق، م ٣٢، ع٢، ٢٠١٧.